أجمل الحكايات

٥

الثائه من القافلة

حكايات من رحلة ابن جبير
لأبى الحسين محمد بن أحمد بن جبير
١١٨٣ - ١١٨٤ هـ

يقدمها
يعقوب الشارونى

رسوم
أحمد أمين

obeikandl.com

بطاقة الفهرسة إعدادا الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية
ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير، ١١٤٥- ١٢١٧. التائه من القافلة: حكايات من رحلة ابن جبير. لأبى الحسين محمد بن أحمد بن جبير. يقدمها: يعقوب الشارونى؛ رسوم: أحمد أمين. القاهرة. دار المعارف،٢٠٠٧. ٢٤ ص: أبيض؛ ٢٤ سم (أجمل الحكايات؛٥). تدمك٢- ٧١١٩-٠٢-٩٧٧-٩٧٨ ١- قصص الأطفال. ٢- القصص العربية. أ- الشارونى، يعقوب (مقدم). ب- أمين، أحمد (رسام). ج- العنوان. د- السلسلة
ديوى٨١٣.٠٢

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٤٣٤٦ ٧/٢٠٠٧/١٣

تصميم الغلاف

شريفة أبو سيف

تنفيذ المتن والغلاف

بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات

دار المعارف

الناشر: دار المعارف- ١١١٩- كورنيش النيل- القاهرة- ج. م. ع

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧- فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail:maaref@idsc.net.eg

قنديل لإعلان التسحير والإمساك

حدثنا ابن جبير عن رحلته التي بدأها سنة ١١٨٣م، قال:

في المئذنة التي في الركن الشرقي من المسجد الحرام، يتولى المؤذن التسحير خلال شهر رمضان، فيقوم وقت السحور داعيًا مذكرًا بالسحور.

وقد نصبت في أعلى المئذنة (وكانوا يسمونها الصومعة) خشبة طويلة، ركبت عليها بكرتان صغيرتان، يرفع عليهما قنديلان كبيران من الزجاج، تظهر شعلتاهما مضيئتان مدة التسحير.

فإذا اقترب ميعاد الإمساك عن الطعام، أنزل المؤذن القنديلين من أعلى الخشبة، ويبدأ المؤذن الأذان، ويتبعه المؤذنون من كل ناحية.

ولكل بيوت مكة سطوح مرتفعة، فمن لم يسمع نداء التسحير، أو من يبعد مسكنه عن المسجد، يبصر القنديلين متقدين مشتعلين في أعلى المئذنة. فإذا لم يبصرهما، علم أن وقت الإمساك قد حل.

يبيعون ويشترون بالأقمشة والثياب

من رحمة الله، والاعتناء الكريم منه سبحانه بحرمه المبارك، أن قبائل من اليمن يستعدون مدة عشرة أيام قبل السفر إلى مكة المكرمة المباركة، فيجمعون بين النية في العمرة، وتزويد البلد بأنواع من الأطعمة، كالحنطة وسائر الحبوب، مثل اللوبياء وغيرها، ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز.

ويصلون في آلاف من العدد رجالاً وجمالاً محملة بجميع ما ذكرنا، فتنتعش حياة أهل البلد، والمجاورين لهذا البلد، يأكلون ويدخرون، ويعم الخير، ويشتري الناس ما يكفيهم لمدة عام، حتى تأتي تلك القوافل مرة أخرى. ولولا ما يحضره معهم هؤلاء اليمنيون، لعاش أهل مكة في ظف ومشقة.

ومن العجيب في أمر هؤلاء اليمنيين، أنهم لا يبيعون جميع ما ذكرنا بدينار ولا بدرهم، إنما يبيعون في مقابل ما يشترونه من الأقمشة والثياب والعباءات. فأهل مكة يقومون بإعداد مثل هذه الأشياء مما يلبسه الأعراب، يشترون بها من التجار اليمنيين ويبيعونها لهم

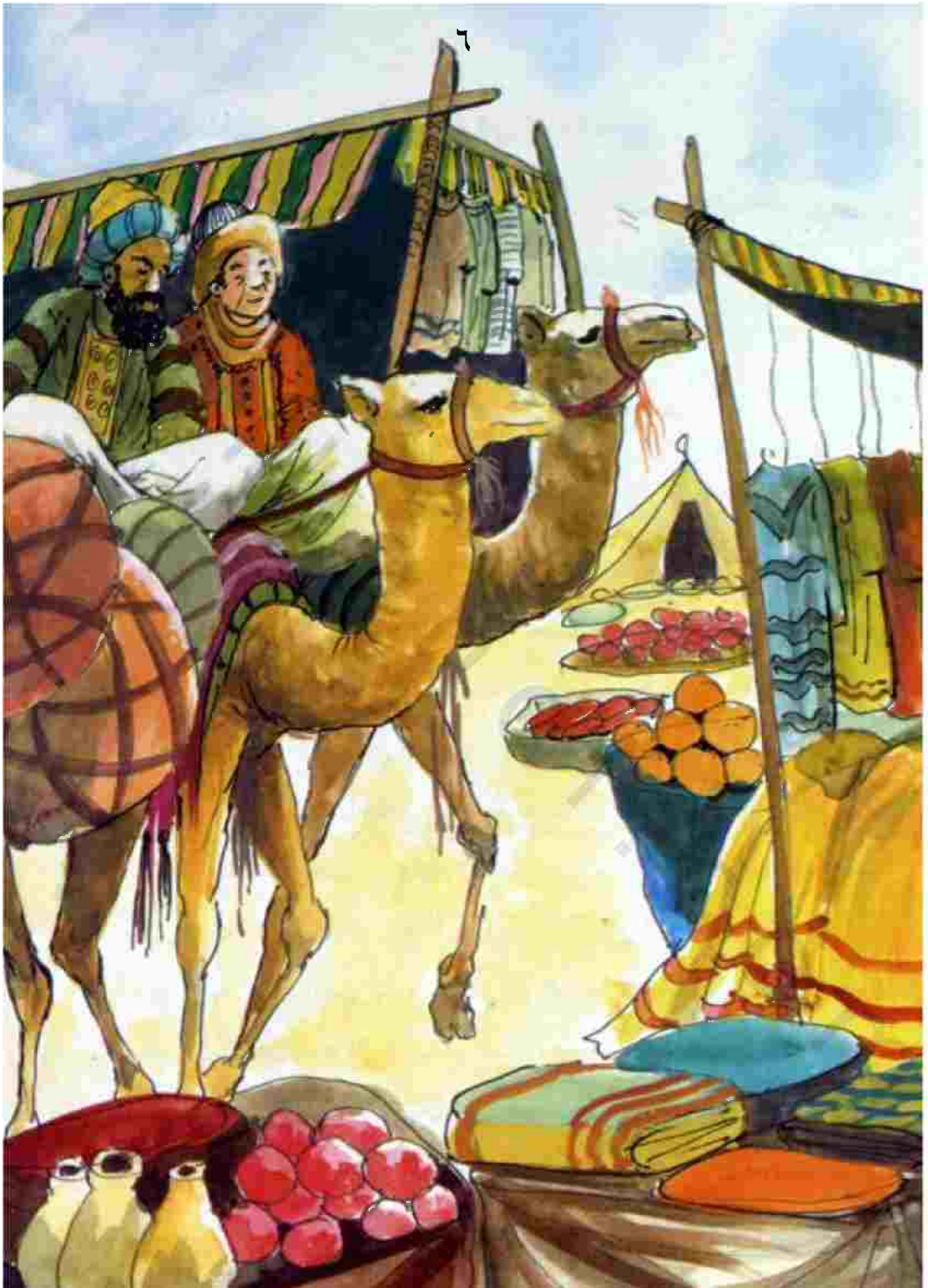

التائه من القافلة

بعد أداء فريضة الحج، استأجرنا جملاً لنسافر عليه إلى الموصل، التي تبعد عن بغداد عشرة أيام. فكانت مدة إقامتنا بمكة، شرفها الله، ثمانية أشهر وثلث شهر. ثم بدأت السفر مع قافلة أمير الحج، الذي يعينه الخليفة أمير المؤمنين كل عام.

وهذه القافلة العراقية، وما أضيف إليها من قوافل خراسان والموصل وغيرهما من الجهات، جمع لا يحصى عدده، تبصرهم كأنهم بحر لا نهاية له. ويكفي أن تعرف أنه متى توقفت القافلة للراحة أو المبيت، فإن النازل في أحدى هذه الخيام، إذا خرج عنها لسبب من الأسباب، ولم تكن لديه دلالة يستدل بها ليعود إلى موضعه، ضل وضاع، وربما اضطر أن يذهب إلى أمير الحج يشكون له ما حل به، فيأمر الأمير أحد المنادين الذين يلعنون أوامره ويطيعوه، أن يضع التائه خلفه على جمل، ويطوف على جموع المكان الشديد الاتساع الذي حلت به القافلة، بعد أن يكون قد ذكر له اسمه واسم قائد جمله واسم البلد الذي هو منه، فيرفع صوته مناديًا بذلك، ليعرف الناس بذلك الضال، إلى أن يعثر على أصحابه ، فيتركه لهم، وإلا كان ذلك آخر عهد التائه بأصحابه، ولن يجدهم بعد ذلك إلا إذا خدمته الصدفة.

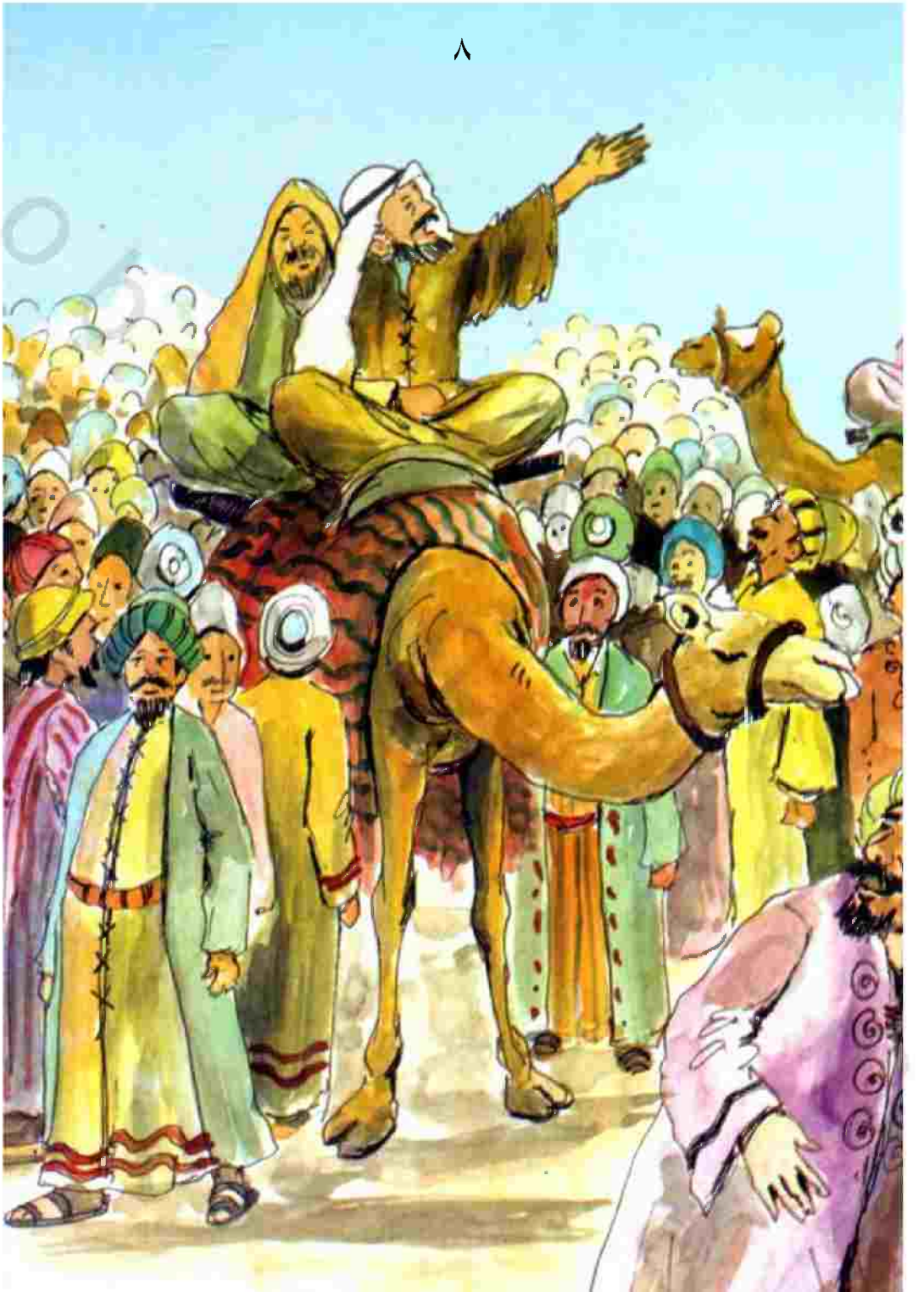

جسر من السفن على نهر الفرات

بعد أن غادرنا مدينة الكوفة بالعراق، وصلنا مدينة ((الحلة))، وهي مدينة كبيرة على شاطئ نهر الفرات، بها أسواق حافلة بكل ما يحتاج إليه الإنسان، كثيرة العمائر والبنايات، مزدحمة بالناس، وكل بيوتها بين حدائق النخيل التي تخيط بها من كل جانب.

ولعبور النهر، وجدنا جسرًا عظيمًا أقيم من مراكب كبيرة تم وضع بعضها بجوار بعض، متصلة من شاطئ إلى الشاطئ الآخر، تربطها إلى بعضها من الجانبين سلاسل من حديد كأنها أذرع مفتولة ضخمة. ويرتبط الجسر بكل شاطئ بقطع من الأخشاب مثبتة في أرض الشاطئ. ويدل هذا الجسر على تفوق فن العمارة ، والقدرة الكبيرة على تنفيذ المشروعات المهمة.

وعرفنا أن الخليفة هو الذي أمر بإقامة هذا الجسر، لاهتمامه بالحجاج وتسهيلاً لطريقهم إلى مكة شرفها الله، فقد كان الحجاج قبل إنشاء هذا الجسر يعبرون النهر في المراكب، وكانوا قد فعلوا ذلك في إحدى السنوات وهم ذاهبون على الحج. وعند عودتهم وجدوا الخليفة قد أقام ذلك الجسر أثناء قيامهم بفريضة الحج وقبل عودتهم إلى بلادهم.

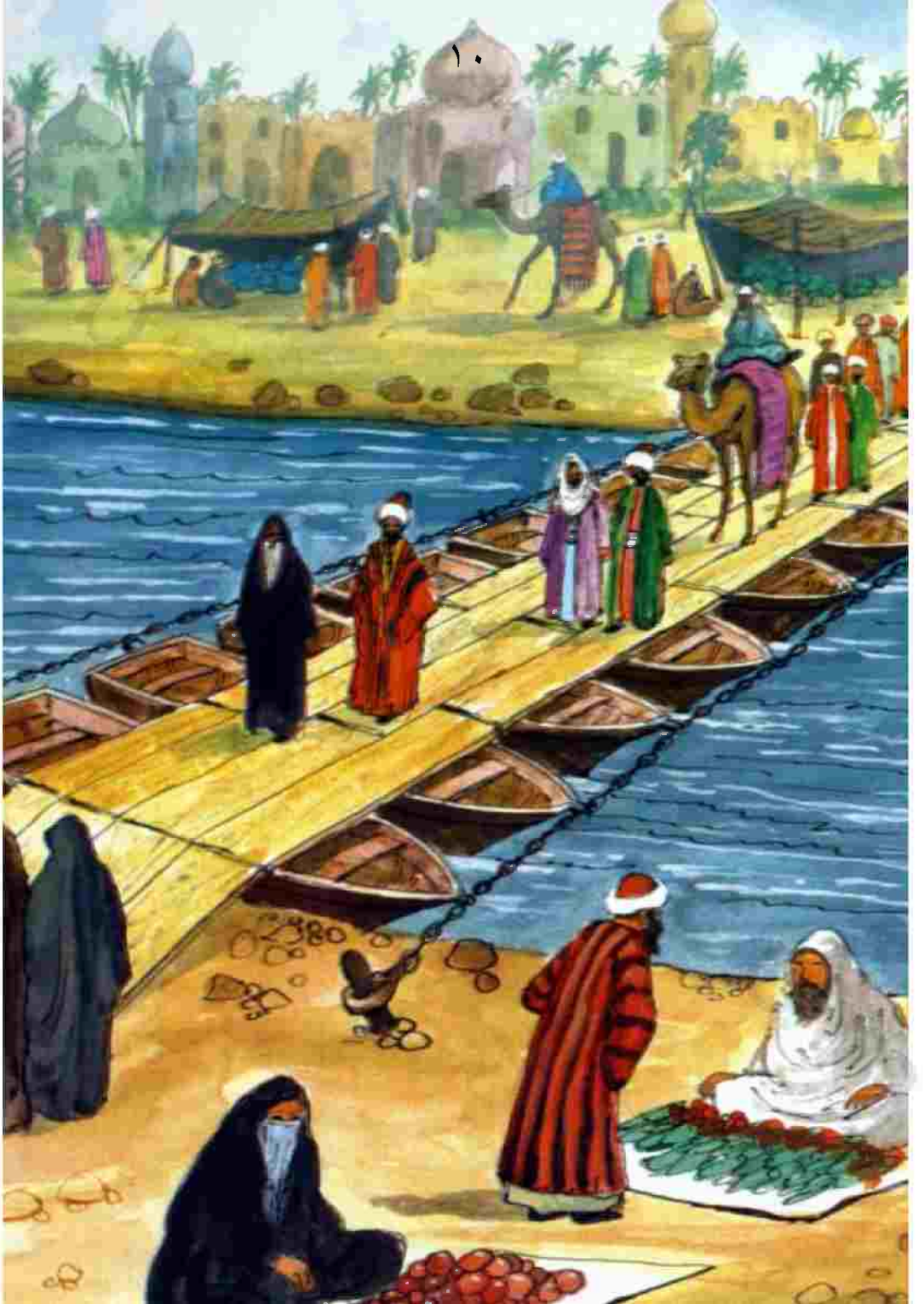

بناء جامع دمشق

جامع دمشق من اشهر الجوامع حسنا وإتقان بناء و غرابه صنعة و اهتماما بالزخرفة و التزيين

ومن عجيب شأن هذا المسجد أن العنكبوت لا تنسج به بيوتًا ولا تدخله. كذلك الطيور المعروفة باسم ((الخطاف)) التي اعتادت أن تبنى أعشاشها داخل البيوت والمباني.

وقد أمر ببناء هذا المسجد الخليفة الوليد بن عبد الملك، فقد أرسل إلى ملك الروم بالقسطنطينية يطلب منه إرسال اثني عشر ألفا من الصناع للمشاركة في البناء، فأرسلهم إليه.

ورصعت جدرانه بفصوص من الخزف المعروف ((بالفسيفساء)) بعد أن تم صبغها بألوان مدهشة، فشكلت رسومًا لأشجار لها فروع كلها منت تلك الفصوص، تم تنفيذها ببدائع من الصنعة الأنيقة المعجزة التي تفوق وصف كل واصف، فجاء وميضها وبريقها يغشى العيون ويسحرها.

وقد أصيب هذا المسجد بالحريق مرتين، فتهدم وجدد، وأكثر الأجزاء التي ظلت سليمة هي القبلة مع القباب الثلاث المتصلة بها.

التدريس في جامع دمشق

في جامع دمشق حلقات للتدريس للطلبة، مخصص للمدرسين الذين يقومون بالتدريس فيها مكافآت كبيرة.

وأغرب ما يحدث فيه، أن عمودًا من أعمدته مخصص له منحة معروفة، يأخذها أي مدرس من الغرباء، يجلس مستندًا إلى ذلك العمود للتدريس.

وفي كل يوم بعد صلاة الصبح، يجتمع عدد كبير من الناس لقراءة القرآن. وبعد القراءة يستند كل منهم إلى عمود من أعمدة الجامع، ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن.

ويأخذ هؤلاء الصبيان جراية أو منحة معلومة، وهذا من المفاخر الإسلامية، وقد يمتنع عن أخذ هذه المنحة من كان في غير حاجة إليها.

وتعليم الكتاب والخط، يكون عن طريق كتابة الشعر وغيره، تنزيهًا واحترامًا لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالكتابة والمحو.

وفي بعض الأحيان قد يكون المعلم الذي يشرف على تحفيظ القرآن الكريم، غير المعلم الذي يقوم بتعليم الكتابة والخط، ولهم في ذلك سبب واضح، إذ يؤدى إلى حسن خط الصبيان، لأن المعلم

لا ينشغل بغير تعليم الخط فهو يركز فيه كل جهده ، كذلك يبذل الصبى كل جهده فى التعلم ، فيصبح من السهل عليه أن يكتب بخط حسن.

مارستانان في دمشق

حدثنا ابن جبير عن رحلته التي بدأها سنة ١١٨٣م، قال: في دمشق مارستانان (مستشفيان)، أحدهما قديم والآخر حديث. والمستشفى الحديث أكبر وأكثر امتلاء بالمرضى، مخصص له في اليوم حوالي خمسة عشر دينارًا. وله مشرفون يمسكون السجلات المحتوية على أسماء المرضى، وعلى مقدار النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك. والأطباء يذهبون إليه مبكرًا صباح كل يوم، يفحصون المرضى ويأمرون بإعداد ما يلزم لهم من الأدوية والأغذية، حسبما يحتاج كل إنسان منهم. وللمجانين المعتقلين أيضًا نوع من العلاج، وهم في سلاسل مقيدو، نعوذ بالله من المحنة وسوء القدر . وهذا المارستانان أو المستشفيان مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام.

بيوت الصوفية

"الرباطات" أو الخوانق "هي القصور والبيوت المخصصة لإقامة الصوفية، وهي قصور مزخرفة، يجري الماء في بساتينها على أحسن منظر يمكن أن يقع عليه بصر إنسان.

وطائفة الصوفية قد أغناهم الله عن مشاكل الدنيا وهمومها، وفرغ خواطرهم لعبادته بغير أن ينشغلوا بما يحتاجون إليه في معيشتهم، وأسكنهم في قصور كأنها في الجنة ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصلوا بفضل الله على نعيم الدنيا والآخرة.

ومن أعظم ما شاهدناه لهم، مكان يعرفه الناس باسم "القصر"، وهو بناء عظيم يرتفع في الهواء، في أعلاه مساكن لم نر أجمل منها، ولهذا القصر بستان عظيم يتصل به، كان متنزها لأحد ملوك الأتراك.

ويقال إن هذا الملك كان في قصره هذا ذات ليلة يستمتع بوقته مع أصحاب له، فمر بجوار القصر قوم من الصوفية، فوجئوا بسيل من النبيذ فوق رؤوسهم، صبه عليهم بعض ما كانوا في ذلك القصر، فاشتكى جماعة من الصوفية إلى الملك نور الدين.

ولم يهدأ نور الدين، إلى أن وافق ذلك الملك التركي على تقديم القصر هبة، بغير مقابل، للصوفية يحتفظون به إلى الأبد.

وأفضال الملك نور الدين، هذا الرجل الصالح، كثيرة، وكان من الملوك الزهاد. وبعد وفاته تولى الحكم صلاح الدين الأيوبي، الذي أبطل الضرائب التي كانت تؤخذ من الحجاج وهم في طريق الحجاز، وعوض حاكم الحجاز عن قيمة هذه الضرائب التي استمرت فترة سابقة طويلة.

الإشراف على الغرق

عندما اقتربت سفينتان من مدينة مسينا بجزيرة صقلية، فوجئنا بصياح البحارة ينذرنا أن قوة الرياح دفعت المركب ناحية الشاطئ، وأصبحت معرضة للاصطدام به، فأمر الربان بإنزال الأشرعة. لكن شدة الرياح منعتهم من إنزال شراع الصاري الرئيسي الكبير، فاضطر الرباني إلى تمزيقه بالسكين قطعا قطعًا...

وفي أثناء هذه المحاولة، التصق المركب بالبر، فارتفعت من الركاب صيحة هائلة وقد استسلموا لقضاء ربهم، والرياح والأمواج تضرب المركب، والربان لم يعد يستطيع فعل شئ فترك مصير المركب للبحر.

فلما تحققنا أن نهايتنا اقتربت، تأهبنا للموت واستمسكنا بالصبر، وقد علا الصياح وارتفع الصراخ من الأطفال والنساء، ونحن نبصر البر قريبًا منا، ونتردد بين أن نلقى أنفسنا في الماء لعلنا نصل إلى الشاطئ سباحة، أو ننتظر لعل الفرج من عند الله يأتي مع الصباح.

وأنزل البحارة زورق النجاة إلى الماء، ونقلوا إليه المهم من رجالهم ونسائهم وأشيائهم، وساروا به إلى البر، لكنهم لم يستطيعوا العودة به إلينا في المركب، فقذفه الموج وكسره على البر، فملأ اليأس نفوسنا.

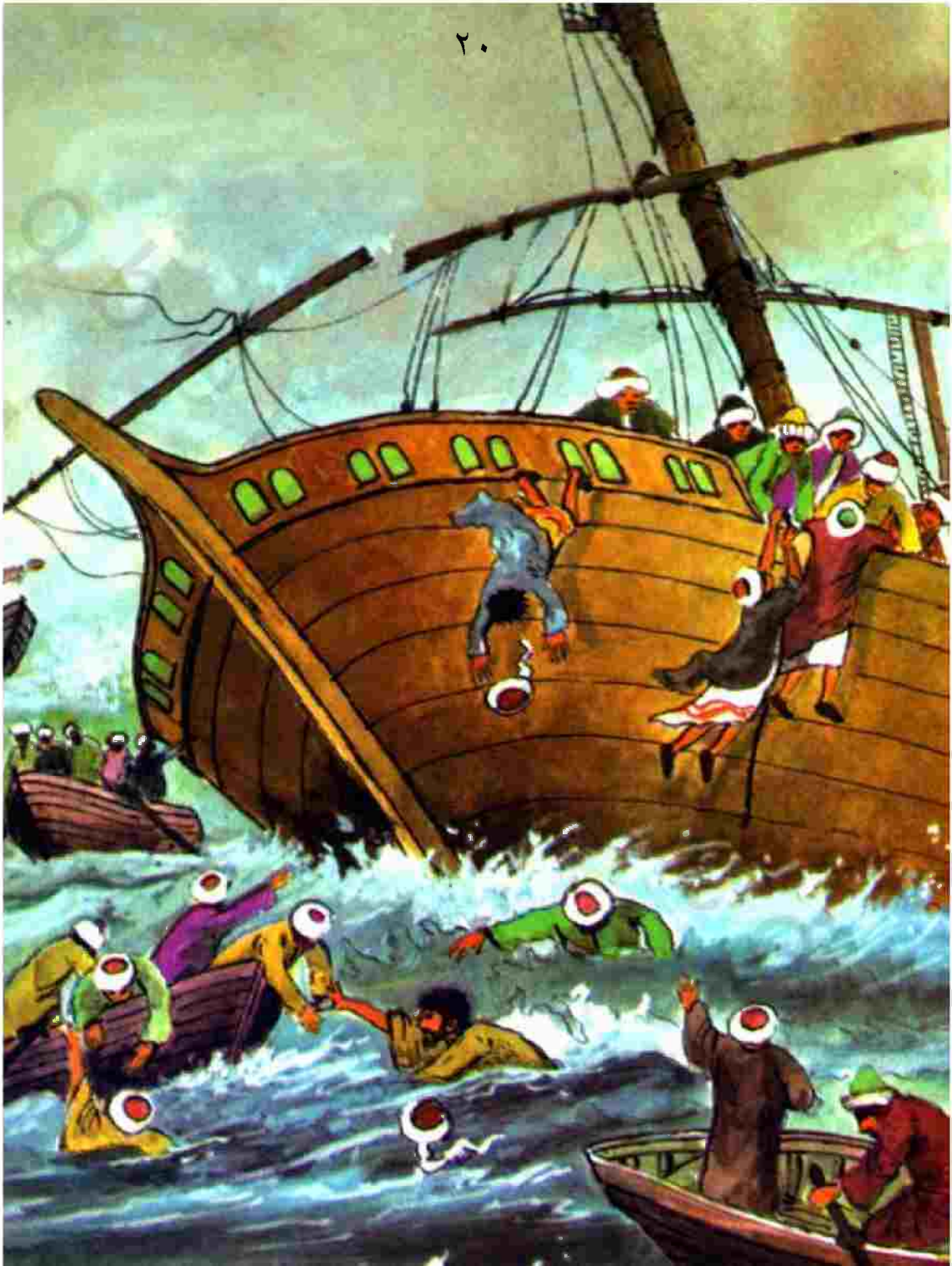

وأثناء هذه المعاناة، ظهر نور الصباح، فإذا بمدينة مسينا أمامنا على مسافة أقل من نصف ميل، ومع ذلك لا نستطيع الوصول إليها، فقد يأتي الموت إلى الإنسان وهو على عتبة داره!

ومع الشروق جاء نصر الله، فقد جاءتنا زوارق الإنقاذ، إذ ارتفعت في المدينة صيحة الإنذار، ومعها جاء إلينا ملك صقلية مع عدد من رجاله ليتابع الواقعة بنفسه.

وأسرعنا ننزل في الزوارق بينما الأمواج لشدتها لا تمكنها من الوصول إلى المركب، فكان نزولنا فيها خاتمة الرعب العظيم، ونجونا إلى البر وقد ضاع من الناس كثير مما كان معهم، فقنعوا عن الغنيمة بالنجاة.

ومن جملة صنع الله عز وجل لنا في هذه الحادثة، أن هذا الملك كان حاضرًا، ولولا ذلك لتم نهب جميع ما في المركب، وربما أخذوا كل من فيه عبيدًا، فالحمد لله على رحمته بنا.

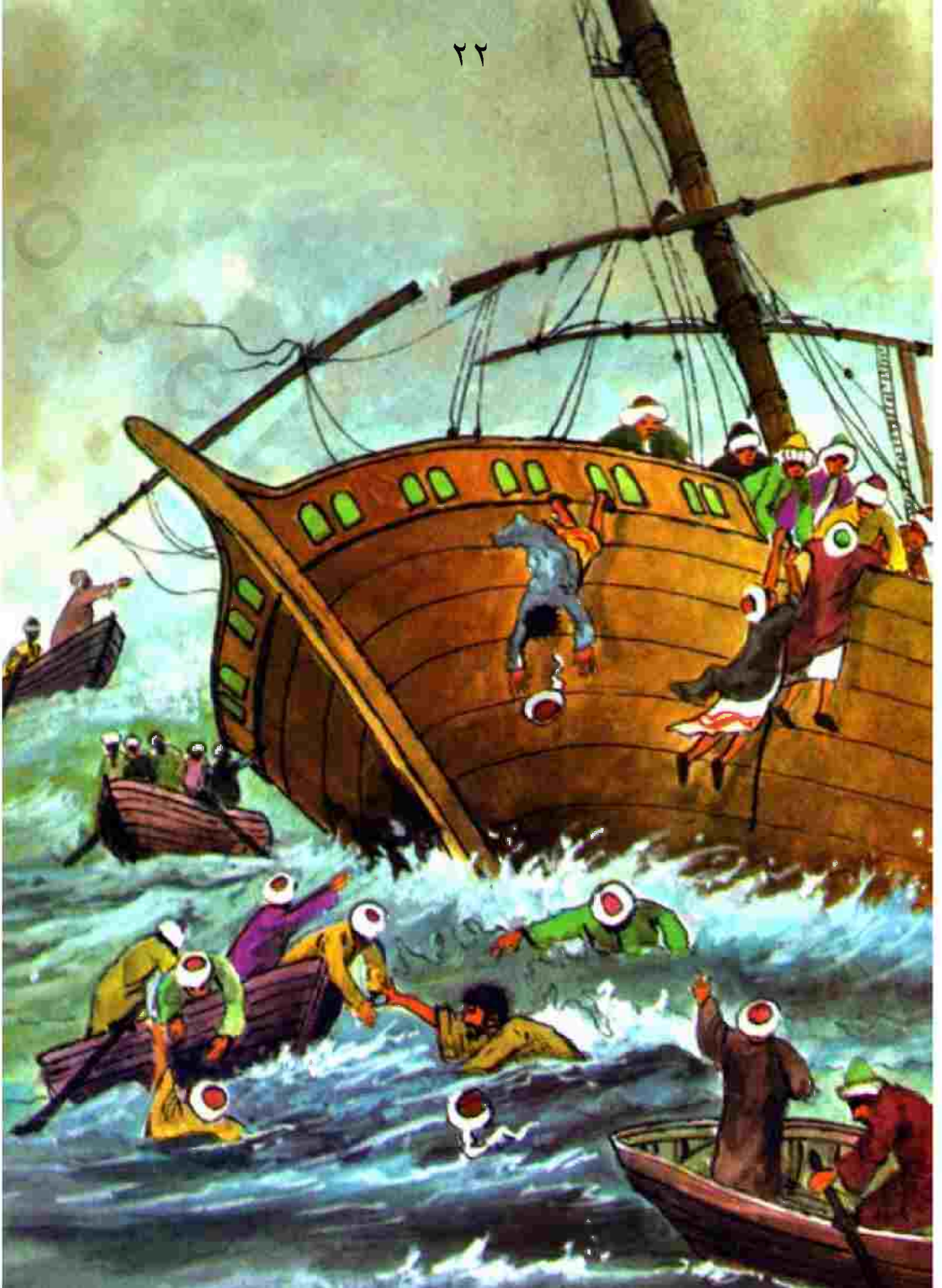

جبل النار

غادرنا صقلية في زورق أبحر بنا قريبًا من الساحل بحيث نبصره، وأرسل الله علينا ريحًا رخاء طيبة دفعت الزورق برفق، فسرنا نتأمل في بيوت وقرى متصلة بعضها وراء بعض، وفي حصون مقامه على قمم الجبال العالية.

ورأينا في البحر تسع جزائر تتكون من جبال مرتفعة، اثنتان منها على مقربة من بر الجزيرة تخرج منهما النار دائمًان وأبصرنا الدخان صاعدًا منهما، وتظهر بالليل نار حمراء ذات ألسن تصعد في الجو.

وعرفنا أن هذا الدخان وهذه النار تخرج من ممرات في الجبلين المذكورين، وتصعد منها بما يشبه النفس الناري بقوة شديدة، وربما إذا قذفنا في طريقها بحجر كبير، تلقى به فورًا إلى الهواء وتمنعه أن يسقط أو يغوص إلى قاع البركان.

أما الجبال الشامخ الثاني بالجزيرة والمعروف "بجبل النار" نعرفه حاليًا باسم "جبل إتنا"، فشأنه أيضًا عجيب، ذلك أن نارًا تخرج منه في بعض السنين كالسيل الكاسح، فلا تمر بشيء إلا أحرقته، حتى تصل إلى البحر وتغوص فيه، فسبحان المبدع في عجائب مخلوقاته.